

الجاحظ ... نشأته وثقافته

بقلم /
سعد إسماعيل شبيب الدالي

رجل ولد دميما معدما لا مال له ولا حسب - كان جاحظ العينين قصير القامة . يضرب المثل ببشاعته . ومع ذلك صار أديب عصره ، عالما عاليا للأدب وعبقريّة ندر وجود أمثالها . فكانت له طريقة فريدة في الأدب وأسلوب علمي في الكتابه ، وآراء دينية كونت لها فرقة ، وقلم ساخر لاذع وتوجيه فلسفي . كل هذا مع التزام أدبي أدى به شهادة جامعة عن مجتمع عصره . ذلك هو الجاحظ .

نشأته وثقافته : (١٦٠ - ٢٥٥ هـ)

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنعاني الليثي . قيل إنه كنعاني من بني كنعان بن خزيمه خالص النسب وقيل إنه كان مولى أبي القاسم عمرو بن قلع الكنعاني . ولد في البصرة حوالي سنة ١٦٠ هـ وتوفي والده وهو طفل وتعلم الخط والكتابة

في أحد كتاتيب بلده وأخذ منذ كان يافعاً يتلقى الفصاحة شفاهاً عن العرب في المربد بالبصرة . والمربد يومئذ على مثال سوق عكاظ في الجاهلية تقام فيه مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء .

والثابت أن الجاحظ ذاق مرارة اليتيم والفقر حتى يروي إنه رثي بـسبحان أحد أنهار البصرة يبيع الخبز والسمك في صباه . وإذا كان من الصعاب ما يحفز الهمم ويقوي العزائم ويثير القرائح إذا كان صاحبها ممن أوتوا نباهة وفطنة فهكذا كان دأب الجاحظ السير في عصامية نادرة حتى علا شأنه . اتصل بعظماء عصره في الدين والآداب وأخذ عنهم مثل الأصبمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيده معمر بن المشني والأحفش والنظام إبراهيم بن سيار البلخي وصالح بن جناح اللخمي . فلقد كان هؤلاء أشهر الأسماء وأحكم رجال عصره في فنون الأدب والأخبار واللغة والكلام والحكمة . أي تثقف بالثقافة الراقية لعهد .

وزاد على علمه منهم أنه أعمل فكره فيما تعلم وحلل المسميات كما تعلم الأسماء . اتسع عقله للاشتغال بمسائل مهمة في الدين فكان صاحب مذهب واتباع وكان مولعاً بالكتب والقراءة حتى إنهم قالوا عنه : « كان لا يقع في يده كتاب إلا ويقرؤه من أوله إلى آخره » . كان يكثرى حوانيت الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر . وهذا العكوف على القراءة هو الذي جعل كتبه ورسائله أشبه ما تكون بدوائر معارف لا نسمع عن مجال من مجالات الثقافة في عصره إلا وتسربت منه فروع

ومنعطفات إلى كتاباته ومؤلفاته ، يعرض في كتبه جميع أنواع الثقافة التي عاصرتها
من هندية وفارسية ويونانية وعربية .

كان الجاحظ من المعتزلة وهو تلميذ النظام في اعتزاله وقد أشاد به الجاحظ
مرارا في حيوانه كما أشاد بغيره من المعتزلة . واستطاع خلال اعتزاله أن ينفذ إلى
تأليف مجموعة من الآراء تعصبت لها طائفة من المعتزلة سميت باسم الجاحظية . وقد
عرفت المعتزلة في ذلك الحين بكثرة الجدل والحوار كما عرفت بسعة ثقافتها واتصالها
بجميع ألوان المعارف لعصرها وخاصة المعارف اليونانية . واشتهروا أيضا
بفصاحتهم وبلاغتهم حتى أن الجاحظ يقول عنهم في البيان والتبيين « إن كبار
المتكلمين وروءساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء »
أخذ الجاحظ من بيئة المعتزلة فصاحته وبيانه متأثرا بكتابات عصره وخاصة
كتابات ابن المقفع وسهل بن هارون الذي كان يشغف به . ولقد استوت شهرته
واسعة بين كتاب عصره مع بداية القرن الثالث الهجري . ولعل ذلك ما جعل
المأمون يطلب إليه أن يكتب له رسالة في العباسية والاحتجاج لها . ولقد أقيم
على ديوان الرسائل فلم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام وكأنه لم يستطع الخضوع لنظم
الدواوين وما يقتضيه سير العمل فيها فهجها إلى داره وما عكف عليه من إدمان
القراءة والتأليف .

ويبدو أن كبراء الدولة كانوا يكفونه حاجته فقد أعطاه ابن الزيات في كتاب

الحيوان خمسة آلاف دينار وأعطاه ابن أبي دؤاد في البيان والثنين خمسة آلاف دينار كما أعطاه إبراهيم بن العباس الصولي مثلها في كتاب الزرع والنخل . أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل الذي صنف له رسالته في فضائل الترك فقد أجرى عليه راتبا شهريا كان يتقاضاه من خزانة الدولة . كان كبار رجال الدولة العباسية يرادونه ويصادقونه فقد كان صديقا لابن الزيت مقربا منه فلما قبض وأودع التنور فر الجاحظ هاربا خوفا من أن يكون ثاني اثنين إذ هما في التنور ولما قبض عليه وقدم إلى ابن أبي دؤاد عدو ابن الزيت لقيه لقاء جافا فاعترضه قائلا : « خفض عليك - أيدك الله - فو الله لأن يكون لك الأمر على خيرا من أن يكون لي عليك . ولأن أسى وتحسن أحسن في الأحدث من أن أحسن وتسىء ولأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل بك من الانتقام مني » فغفا عنه .

وعاد إلى البصرة يؤلف ويكتب مصنفاته التي تعلق بها العامة والخاصة تعلقا شديدا . ولربما كان من أسباب ذلك ميله إلى التندر والدعاية حتى ليقول ابن أبي دؤاد « إني أثق بظرفه » ولقد وصف من جاءوا بعده كتبه بأنها مكتوبة في ضروب من الجند والهزل . فلقد كان الجاحظ شخصية فكية كما كان شخصية لسنة . ومن المحقق أنه لال شهرة مدوية في عصره وبعد عصره ، إذ نجد الكتاب والأدباء يلهمجون دائما بمدحه والثناء عليه حتى أنهم ليقولون إن كتبه رياض زاهرة ورسائل مشمرة . وكان ابن العميد يقول : إن الناس عيال عليه في البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة . وكان يقول أيضا : إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ومع

ذلك كان الجاحظ يشكو من حساده وجهل الناس به في أوائل حياته إذا أخرج كتابا معنونا باسمه تقموه منه وأظهروا له الازدراء فكان كثيرا ما يؤلف كتباً وينسبها إلى ابن المقفع والخليل والعنابي فيأتونه لكتابتها وروايتها عنه .

وعاش الجاحظ ما يزيد على التسعين سنة ومن الطبيعي أن يساعده هذا العمر المديد على كثرة التأليف . وكان دميما مشوه الخلقة جاحظ العينين ولذلك سمي بالجاحظ . ويقال له « الحدقي » فانصرف عنه الناس وتفرغ هو لصناعة الكتب وساعده على ذلك أيضا إصابته الطويلة بالفالج فلقد ألف في أثناء هذا المرض أشهر كتبه هو (الحيوان) وقد صرح الجاحظ في كتاب (البخلاء) بأنه ألفه وهو مصاب بالفالج . وأصيب أيضا بالنقرس في أواخر أيامه . دخل عليه المبرد وهو عليل فسأله عن حاله فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو نشر بالمنشار لما أحس به . ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه . والامر على ذلك أي قد جاوزت التسعين .

ويعتبر اصطناع الجاحظ صناعة التأليف والكتابة من المعالم البارزة في تاريخ الكتاب العربي وتطوره . فقد كانت هذه الصناعة في خطواتها الأولى لم تنهج لها سبيلا واضحا مرسوما ، حميلة على غيرها ، معلقة بمجالس الدرس والمناظرة ، هي إلى التدوين أقرب منها إلى التأليف . وبفضل الجاحظ أصبح للكتاب شأن ومكان في عالم الفكر وذلك بما أدركه بعمق ما يستطيع الكتاب أدائه في بناء حضارة الإنسان إذ يقول : « الإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ولا بد أن تكون

كتبه أكثر من سماعه ... » ولعله كان أول من اتخذ التأليف صناعة له ومن ذلك جاء الكتاب الجاحظي نمطا جديدا في التأليف يجمع بين بسط العبارة وجمالها ويتجه إلى جمهور القراء لا إلى طائفة خاصة منهم .

ومع هذا ظل الجاحظ يسلي نفسه بالتأليف على النحو الذي جرى عليه أيام الكهولة والشباب فعوضته الطبيعة في شبابه عن جمال الوجه بجمال العلم وجلاله ، وإعاضته في شيخوخته عن جودة الصحة صحة العقل . ومات سنة ٢٥٥ هـ بالبصرة وقيل وقعت عليه مجلدات العلم فمات .

عصر الجاحظ :

كانت الفترة منذ نهاية القرن الثاني إلى منتصف الثالث الهجري فترة ازدهار واستقرار ولم يكدر صفاء هذه الفترة إلا الصراع بين المؤمنين والمؤمن على ولاية العهد ، حتى إذا استقل المأمون بالخلافة عادت الأمور إلى مجراها كما كانت أيام الرشيد والمهدي والهادي .

عمرت في تلك الأيام مجالس العلم والأدب وعرف الجميع للعلوم والعلماء قدرهم . استمتع أرباب العقول بحرياتهم فأنشأوا يفكرون على ما يشاؤون في نطاق الإسلام بعد القضاء على الزنادقة وتقطيع كتبهم . وكثر الباحثون والدارسون وأخذ الخلفاء والأمرأ بأيدي من أتقنوا فنهم وعلمهم . وتم تدوين الحديث وتدوين سائر علوم العرب ومعارفهم كاللغة والشعر والمغازي والتاريخ . وتبع ذلك

نبوع أئمة المذاهب الأربعة التي وقع الاكتفاء بها عند أهل السنة . وزاد عدد النقلة من الفارسية واليونانية والسريانية . وراجت الوراقة رواجاً عظيماً بعدما جمع الملوك خزائن الكتب في قصورهم وأقاموا دور الحكمة في عاصمة الخلافة فافتضى الأمراء وعلية القوم آثار خلفائهم في خدمة الآداب . في هذه الفترة نبغ عدد وافر من فحول الشعراء ومن أعلام اللغويين والنحاة ومن كبار رجال الفكر والمتكلمين .

كانت البصرة حاضرة علم وتجارة قبل أن يتخذ بنو العباس بغداد عاصمة لهم . وذاع شأن سوقها المربد وغدت عكاظ الإسلام ، ملتقى التجار واللغويين والشعراء والمتكلمين ورجال الفكر ، لها شخصيتها المتفردة التي غدا من مقوماتها النزعة الواقعية والمنحى المنطقي في معالجة الأمور والاعتماد على القياس في الاجتهاد والرأي . وفي البصرة نبت الاعتزال ونشأ النحو وابتكر العروض وتجدد الأدب . والعهد بالكوفة يختلف بنوها إلى الكساسة — سوقها — مجمع الشعراء والأدباء وإلى مسجدهم مجمع العلماء ومغني القرائح — والمنافسة بين البلدين في اللغة والنحو مشهورة . وبغداد تنعقد مجالسها وتغص مساجدها بأرباب العقول وحفدة الشريعة وقادة الفكر وشعراء الحضارة وأمرأى البلاغة .

حينذاك كان بعض العرب ينظرون إلى الموالي وأغلبهم من الفرس نظرة الغالب للمغلوب مما جعل الموالي يرون أنهم رعايا للعرب وليسوا مواطنين . وكان لتقدم الفرس على العرب في شئون الحكم سبباً في اصطدام هائل بين العرب والموالي . وسرعان ما ظهرت نزعة الشعوبية ، فطعن جماعة من علماء العجم وأدبائهم في عرب

الجاهلية لبعدهم عن أسباب الحضارة . ولقد مثل الشعراء والكتاب هذا التيار القوي من الصراع الذي اجتاحت العالم الإسلامي فتعصب بعضهم لأصله الفارسي وراح ينعت العرب بمغايب ومثالب . وتصدى أصحاب الغيرة والحمية من العرب ينعون على أولئك حقدهم وسوء دخيلتهم ومن هؤلاء برز الجاحظ يفند دعوى الشعوبية ويدافع عن العروبة .

وكان لازدهار حركة التدوين والتأليف والوراقة وكثرة العلماء ، وكان لا انتشار الترجمة إلى العربية وامتلاء المساجد بالدارسين ، كان لكل أثره في ظهور علم الكلام وبروز الفرق الدينية ونشاط المنازع الفكرية واهتم أبناء الجيل بالفكر الوافدة عن الإغريق والفرس والهند وأصبح كل منقول يعتمد على المعقول أو لا بالدليل والقياس والجدال .

وحدث انمازح السكاني الواسع نتيجة لاتساع رقعة الدولة الإسلامية وانتشار العرب في كل هذه الأمصار وتلاقت الثقافات المتعددة لتمتزج في العصر العباسي وتشكل الحضارة العربية الإسلامية متعددة الجوانب غنية المحتوى .

نما الجاحظ في هذه البيئة الثقافية الياعة وشب فيها وعاشها . كان يختلف في شبابه إلى حلقات الدرس التي كانت تعقد بالمساجد وخاصة في مسجد البصرة الكبير ليستمتع ويستزيد من أصناف المعرفة وفنون القول . وكان يرتاد المربد مع مرتاديه فيواجه الفصحاء البداة ويحادثهم ويستمع إلى الشعراء والرجاز الذين

كان يهرع إليهم علماء البصرة ورواتها . ولعله أفاد من ذلك القدرة على التعبير والطلاقة في اللسان مع امتلاكه وسائل الجدل والإقناع .

إلا أن المؤثر الأكبر في تكوين شخصية الجاحظ الفكرية والأدبية إنما يتجلى في بيئة الوراثة فقد وجد في عالم الكتب الرحيب ما يشبع ميوله ويرضي فضوله فكان يلتهم ما يدونه طلاب العلم عن شيوخهم وما كتبه العلماء والرواة . وقد كانت سوق الوراقين كبيرة راجت وتعاضم شأنها حتى ليقول الجاحظ عنها (وحسبك ما في أيدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحن والفلاحة والتجارة وأبواب الأصباغ والعطور) . وكان يلجأ إلى حوانيت الوراقين في الليل يعرض فيها ما فاته بالنهار . ومن حبه ذاك في الكتاب ظهر وصفه البارع الرائع له في كتاب الحيوان .

كان له إرادة قوية ومحبة خالصة للكتاب وقدرة فائقة على الاستقاء والتزود والتحصيل والاستيعاب للعلوم والآداب والمعارف . فمن الطبيعي بعد ذلك أن يبدأ طور العطاء لديه أصيلاً حافلاً ، وأن تنتج قريحته وفكره ثراء غزيراً .

كـتـبـه :

يمتاز الجاحظ بأنه لم يترك موضوعاً عاماً في زمانه إلا وكتب فيه رسالة أو كتاباً ومن يرجع إلى رسائله وكتبه يجده قد ألف في النبات والشجر وفي الحيوان والإنسان وفي المعاد والمعاش وفي الجدل والهزل وفي الترك والسودان وفي المعلمين

والقيان وفي الجواري والغلمان وفي العشق والنساء والنيذ وفي الشيعة والعباسية وفي الزيدية والرافضة وفي الرد على النصارى وحجج النبوة ونظم القرآن وفي البيان والتبيين وفي حيل لصوص النهار وحيل سراق الليل وفي البخلاء واحتجاج الأشحاء وفي هذا ما يدل على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات في بلاغة وبيان عذب .

والناظر إلى هذه القائمة من الموضوعات للكتب التي أوردها الجاحظ في بداية كتابه الحيوان لتتملكه الدهشة والعجب لهذا النبع الدافق الذي ظل يعطي من بواكير شباب الجاحظ حين كان مغمورا حتى مات وسط الكتب بعدما زاد على التسعين عاما . وقد وصلت بعض كتب التراجم بمؤلفات الجاحظ إلى نحو ثلاثمائة وستين أثرا وذلك أقصى تقدير وصلت إليه كتبه الذي يقول فيه المسعودي « ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبنا منه » . على أن أدنى ما تنزل إليه في التقدير أن تكون مائة ونيفا وسبعين كتابا .

وقد تسبب الخمود الذهني وهبوط الهمم والفوضى السياسية التي منيت بها الأمم الإسلامية في مسائها الأول في ضياع هذه النفائس وفقدانها . صرح شامخ أتى التخريب والتدمير والانتقام على جل قواعده ولم يبق إلا قطرات من كأس . لكن هذه القطرات لا يستهان بها ولا بنفاستها فقد كان لها الاثر الكبير على كل من أعقب الجاحظ من الأدباء . ومن جميل ما وصفت به « وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان ، لآئه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ،

وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسأمة السامع خرج من جد إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه » .

بلاغته وأدبه :

كان اتساع أبي عثمان في اللغة لا يشبه اتساع اللغويين . استبطن من أسرارها الكثير، عرف طوائف من الألفاظ تصلح للآدب وطوائف تصلح للزراعة وأخرى للصناعات وأعمال الحياة وغيرها للدينيات ومطالب الآخرة . عدا ما خص بمعرفته للألفاظ الصالحة لكل شأن . كان جد عارف بما يحتاج وي طرح ، يقدر اللفظة بجرسها ورنتها وما يتوقع من تأثير توقيعها وتلحينها إذا قرنت إلى أختها ويميز الثقيلة والخفيفة ، والمأنوسة من الوحشية فيختار ما يؤدي جملة حق الأداء فيبدعه في فنه يرجع أولا إلى ما يختار من الألفاظ .

كان نحاتا وبناء في آن واحد يجود نحت أحجاره ويحس رصفها في البناء كان يرى أن الكتابة الأدبية معان تنسق في موضوع يتصل بالطبيعة أو بالإنسان . وعلى قدر اهتمامه الشديد باللفظ والتركيب كان يرى أن شر البلغاء من هيا رسم المعنى قبل أن يهيم المعنى عشقا لذلك اللفظ وشغفا بذلك الاسم حتى صار يجبر إليه المعنى جرا ويلزقه به إلزاقا حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره فالجاحظ كان يكره

العناية البالغة باللفظ ويرى أن العناية باللفظ والمعنى سواء لا يجوز أحدهما على الآخر أو يحيف عليه .

كان لبقا في تصيده من بحر اللغة الزاخر في صورة . هو لم يستعمل إلا ما عذب في المذاق وحلا في السمع ، وما تحذلق قط فأكره خشن الالفاظ على أداء — ضعيف المعاني وما عمد إلى سهل اللفظ الإفصاح عن سهل المعنى ، وهواه أبدا أن يتخير ألقاظا لمعانيه لا معاني لألقاظه يسير مع الطبع ولا يتكلف السجع ويكتفي منه بما جاء عفوا أحيانا .

كان يوصي الكتاب والمؤلفين بمراجعة كتبهم وتنقيحها لكنه حذر من الإكثار من ذلك . لا يطيل كلامه ولا يختزله ولا يرسله حالا يسيل سيلا بل ينظر فيه إذا خلا إلى نفسه فيحذف فضوله ويضيف العذب السائغ إليه .

ومن أهم ما في صنعة الجاحظ أن كلامه قليل الاستعارات والكنايات والتشبيهات والمجازات لا يأخذ منها إلا بقدر عند الحاجة لأن صفاء ديباجته ونصاعة معانيه لا يحوجانه إلى الاستعانة بما يبرقش به جملة والقوى في امتلاك ناصية الكلام في غنى عن هذه التهاويل والزخرف إلا ما جاء طبيعيا في سياق حديثه .

ومن ملامح صنعته أيضا أنه لم يكن من أرباب الخيال الواسع ولا الضيق فهو خليق أن يعد في جماعة المحسوسات أرباب الواقع الحسي ولذلك كانت براعته في النثر ، أما شعره فلا يتعدى حد الحكاية وتصوير حال وحدث .

يطالع الجاحظ القارىء من بارع أدبه بالإبداع دونه كل إبداع . يعلم في سهولة ويسر ، يستهوي النفس وهى لا تدري كيف أخذت . وقد يجذب كلام غيره بما فيه من ديباجة حسنة أو معنى دقيق أو تحقيق وإحاطة أو فكر طريف أو رأي نادر أما أن يضم الكلام شئت هذه الميزات ويحمل كل ما يعن للخاطر من الصفات فهذا مما لا يقع إلا على النادرة من كلام البلغاء وهو من الأمور المعتادة في كلام أبي عثمان - فأدبه يبعث البهاء والإحساس بالجمال الذي ينشر السرور في الروح ويعلو به الفكر وينبه الحس الشريف صدر عن يد صناع وقريحة وقادة .

كتب بعد الدرس الطويل والخبرة الواسعة وأحاط بأكثر ما في صحيفة الوجود من المعارف ، يتحدث عما في الأرض من تعاجيب وما في السماء من غرائب لا يحتقر شيئاً يدخل في باب الآداب ولا يستنكف من الاخذ عن صغير الناس وكبيرهم ويكشف كل غامض ويستقري ويستنبط ، خليق أن يؤثر في النفوس ويسري إلى الأرواح .

فالواقع أن أدب الجاحظ قطعة من نفسه تتجلى فيه لأول نظرة طريقته ولو أنك ألقيت قطعة من قامه بين عشر قطع أدبية لغيره لما صعب عليك تمييز كلامه من كلام غيره لما تحس من أفكار سديدة ما خان اللفظ ولا السبك كاتبها فشخصيته بارزة في الموضوعات التي جالت فيها براعته - وأسلوبه خاص به لا ينازعه فيه منازع وجماع عوالم الإحسان مستوفاة في كلامه .

ومن الخير لطلاب البلاغة أن يمعنوا النظر في كلام الجاحظ ليتبينوا بأنفسهم طريقته ويتواصفوا في الجملة طراز إملائه دروس البلاغة ويتعرفوا ميزانه الدقيق في فقه اللغة أي النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب ، وتحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال واجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه . كان يتخير اللفظ السمع ويتعد عن المعاني التافهة . أوصى بالابتعاد عن الألفاظ العامية السوقية الساقطة وكذلك الوحشية الغريبة فهو إذا ممن سعوا في تدميث اللغة على نحو ما تدمشت طبائع العربية بالحضارة .

وعلى الجملة يمكن أن نميز أدب الجاحظ وبلاغته في ملامح واضحة أهمها :

أولاً: لغة الاتصال بالجمهور :

كان مدار بلاغته على تحسين اللفظ وتجميل الصورة فوضع الألفاظ مواضعها في التأليف لذلك شاكل اللفظ معناه وخرجت صورة من سماجة الاستعكراه سليمة من فساد التكلف . فهي ألفاظ سهلة جزله مختارة سليمة من الفضول بريئة من التعقيد محبة إلى النفوس تلتحم بالعقول وترتاح لها القلوب ، ليعبر بها عن طرف المعاني المحبة إلى نفسه ويوضحها للقارئ حتى يطرب لها ولا يعاني من محاولات التفهم للمستور والكشف عن الغامض والمحجوب . ونحن إذا تأملنا كيف كان يموج المجتمع العربي بشتى الأجناس . ويمتلئ بعديد اللسان واللغات مع بداية العصر العباسي . وكيف كانت اللغة تواجه طغيان العجمة وذيوع اللحن وكيف

اتسع نطاقها لمستحدثات ذلك العصر المزدهر من علوم وآداب — وفلسفات وترجمات . نجد الحاجة للافق الرحب والعقل الصافي والفكر النير الذي يطوع اللغة ويوسع من رداؤها دون أن يطغى على أصالتها وسلامتها . ويظهر الجاحظ حينئذ ليضع أسس لغة أقرب ما يسميها كتاب الإعلام في العصر الحديث لغة الاتصال بالجمهور فرأى أنه : « قبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والجار أو في مخاطبة أهله وعبدته وأمتة أو في حديثه إذا حدث أو خبره إذا أخبر » « فاختر من المعاني ما لم يكن مستورا باللفظ المعقد مفرقا في الإكثار والتكلف فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع ، بعد أن ينسق له القول وما زال المعنى محجوبا لم تكشف عنه العبارة ، فالمعنى بعد مقيم على استخفائه وصارت العبارة لغوا وظرفا خاليا » دعا بذلك إلى لغة سهلة ميسرة واقعية تلأثم مستويات التعبير ومقتضياته وتحقق النظرية البلاغية الماثورة « لكل مقام مقال » .

ثانيا : الواقعية :

يبدو من كتب الجاحظ أنه شغف بالواقع المحسوس يحكيه كما هو لا يتستر ولا يتخفى كان يؤمن بذكر الحقائق عارية من غير مواربة ولا احتيال أو حجاب ودافع عن هذا المنهج كثيرا وقال : إن من يعدل عنه لا بد وأن يكون صاحب رياء ونفاق وهو ليس من أهل الرياء والنفاق بل هو من أهل الصراحة وأصحاب منهج

الواقعية . نراه يذكّر السوءات والعورات في غير تخرج ولا تأثم حتى إنه لا ينجس
من وصف بعض النزعات الجنسية لأنه يريد أن يصف الحياة كما هي دون تغيير
ولا تبديل إلا في حدود التعبير الفني .

ومن آثار هذه الواقعية في كتاباته أنه مثل لنا عصره وصوره تصويراً جعل
أعماله تعد من أهم المراجع وأد لها التي تكشف لنا حقائق ذلك العصر . صورها لنا
بكل فيها من طهر ووزر ودين وزندقة وجد ولهو وبالع حتى روى لنا كلام شواذ
الناس من موسوسين وحقى وبخلاء ونوكى وغلمان وصعاليك وزط ولصوص .
وجعل الجاحظ الأدب بذلك صورة للواقع بكل تفاصيله فكان عليه أن يحسن تخير
ألفاظه وانتخابها حتى تنطبق تماماً على ما يصنفه أو يصوره بجميع تفاصيله ودقائقه .
فظهرت صوراً عظيمة لمصور عظيم لديه قدرة غريبة على الملاحظة جعلته أيضاً يحسن
القصص كما يحسن التصوير .

وحب الجاحظ للواقع والصراحة جعله يتحرى الصدق والحق ويسعى خلفه
فنحن إذا تأملنا كثيراً من كتاباته يمكننا أن نصفه بأنه اتسم بالروح العلمية وسلك
سبل المنهج العلمي — مع اعتبار فارق الزمن الذي فصلنا عنه — فقد وجد الجاحظ
في دنيا الحيوان مجالا واسعا للتجريب أشبع من خلاله نهمة العلمي يقارن بين بعضها
ويقوم بالتجريب العلمي على البعض الآخر . وكان يحكم العقل والمنطق في كل
ما تصدى له من النزعات الغيبية المفرطة التي تفشت في عصره وتجلت في ذبوع
كثير من الأوهام والأباطيل والأساطير سواء منها ما اتصل بالدين أو العلم أو الحياة .

كان يشك في كل غريب عن العقل والمنطق ويجعل شكه سبيلا إلى اليقين فإذا قرأ قول أرسطو عن وجود حية لها رأسان فلا بد أن يتحرى ويسأل فيعمد أحد الأعراب إلى إثبات وجود هذه الحية كذبا فيشك فيه ويحاول استدراجه إلى التورط في الكذب والاختلاق ليظهر بطلان ما يدعى ويزعم .

ولعله أخذ هذا المنحى في التفكير عن شيخه المعتزلي « النظام » وما أشبه قول ديكارت « لا تصدق إلا ما كان واضحا » يقول الجاحظ « لا أجعل الشيء الجائر كالشيء الذي يثبته الأدلة » .

وقد يكون من آثار هذه الواقعية والأسلوب العلمي في التفكير والكتابة ما امتاز به الجاحظ من عدم العناية بالتشبيهات والاستعارات إلا ما جاء عفو الخاطر أو كان الغرض منه تمثيل الواقع وهذا طبعي عند من لا يعمد للزينة اللفظية عشقا للزينة من حيث هي .

ثالثا : الاستطراد :

يلاحظ كل من يقرأ للجاحظ ضربا من التشعب الهائل في التأليف والاستطراد البين في سير موضوعاته فكأنه يتخذ الاستطراد منهجا في حيوانه وبيانه وسائر كتبه فكما أن مقالاته لا تقتصر أبدا على معالجة موضوع واحد نجد أيضا كتبه ليس لها أي موضوع معلوم يتحدث عن الكلب فيذكر جملة من طبائعه فيورد طائفة من أشعار العرب وأمثالهم التي قالوها في الكلاب وأداروها على محاسنها ومعانيها فكأنما يذكر

الكلب مطية لا يراد هذه الأشعار والأمثال . وهو لا يقف عند هذا الحد بل يقدم الشروح والتعليقات اللغوية أو الكلامية أو الفقهية أو غير ذلك من نتائج الأفكار وقد يبدو له فيقيس طبائع الكلب بطبائع غيره من الحيوان فيرجع عندئذ عودا على بدء يورد الأشعار والأمثال .

هكذا ينتقل من موضوع إلى موضوع ومن مسألة إلى مسألة دون قاعدة موضوعية أو منهج معروف وهي طريقة عريضة — طريقة الاستطراد — عرفت عن الجاحظ واشتهر بها على الرغم من أن المؤلفين قبله عرفوها وساروا عليها في كتبهم وهو يذكر أنه قد تعمد اتباع هذه الطريقة قاصداً إلى راحة القارئ ودفع الملل عنه وتشبث بها ودافع عنها لما لقيه من لوم عليها (فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها . وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة . وإذا كان الأوائل قد ساروا في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيرا) ويقول (قد عزمت والله الموفق — أن أوشح هذا الكتاب وأفضل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل) .

والجاحظ يعترف أن مرضه أدخل الخلل على تأليف حيوانه فقد ألفه وهو مفلوج وكذلك البيان والتبيين الذي ظهر فيه الاستطراد وبأوسع مما ظهر في الحيوان لطول العلة عليه ، إذ يعترف بعجزه ذلك وهو برم بمرضه قلق فيقول « كان التدبير في أسماء

الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم وأسماء أهل الإسلام على منازلهم ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء ونقسم أمورهم بابا على حديثه ولكن لما عجزت عن نظمه وتنفيذه تكلفت ذكرهم في الجملة .

لذلك يخيل لمن يقرأ للجاحظ أنه لم يكن يعرف التركيز في تأليفه إذ ما تزال الأفكار تندفع علينا من هنا فكرة وفكرة من هناك في صورة واضحة من الشعب والتشعب وساعده على ذلك ثقافته الواسعة بجميع معارف عصره سالت من كل واد في كتبه .

رابعاً: التلوين الصوتي :

تعريف جميل حلوهلوسيقى أسلوب الجاحظ اللفظية أورده الدكتور شوقي ضيف في كتابه الفن ومذاهبه في النثر العربي فنحن لا نقرأ للجاحظ أي عبارات من تأليفه حتى نجدده يعني بأصواته عناية تفضي إلى ضروب مختلفة من الإيقاعات الصوتية — ولم يكن يستعين على تجميل هذه الإيقاعات بشيء من البديع وألوانه بل كان يكتفي بها لتعبر عن كل ما يريد من جمال لاسلوبه وطلاوة . وليس معنى ذلك أنه كان يستخدم السجع أو أسلوباً مقارباً منه — فإن السجع لم يكن يصلح له في تأليف كتبه ورسائله الطويلة ، لذلك عدل عنه إلى ضروب من الإيقاعات ، وهي إيقاعات كان يستعين عليها بصور مختلفة من التكرار والترادف واستمع إليه كيف يستهل كتابه الحيوان :

« جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ،
وبين الصدق سببا ، وحبب إليك التثبت ، وزين في عينك الإنصاف ، وأذاقك
حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرده عنك
ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلة وما في الجهل من القلة » .

وهذه هي النعمات الأولى في الكتاب وعلى أساسها ينصب جميع النغم الذي
نقرؤه فيه إذ نرى الجاحظ يحاول دائما أن يوجد لفظه ، وهو لا يكتفي بذلك بل
يسعى دائما إلى إحداث ضروب من التوقيع . وهو توقيع كان يلتمسه من معادلة
ألفاظه معادلة لا تنتهي إلى السجع ولكنها تنتهي إلى هذا التوازن الصوتي الدقيق .
فكل جملة تقابل أختها في موازين الجاحظ الموسيقية ، وهي موازين تحقق لصيغة هذا
اللون من الجمال الموسيقي الذي كان يسميه القدماء ازدواجا ونسميه إيقاعا وتلوينا
صوتيا بديعا وهو تلوين كان يدفع الجاحظ دفعا إلى ضروب من التكرار —
والترادف بنفس واسع مستمر لا يتعثر ولا يتأرجح فيطلق في فيض عذب لا يعوقه
عائق من لفظ أو تعبير .

من يرى ذلك يظن أن ألفاظ اللغة سخرت للجاحظ تسخييرا يختار منها ما يشاء
ويهو في غير عنق أو تكلف ، بل في مهارة وحذق فإذا هو يصل إلى هذه الأصوات
الفخمة أو قل هذه المركبات الموسيقية . موسيقى أساسية في جواهر عباراته تتكون
من التقطيع الصوتي من طرف والتكرار والترادف الموسيقي من طرف آخر .
فالتقطيع يتيح له هذه المعادلات الصوتية التي تجعل العبارات تتعادل هذا التعادل

الموسيقي البديع . كأنما فصلت تفصيلا وقسمت تقسيما ، أما التكرار والترادف فقد كانا شائعين في بيئة المتكلمين بسبب محاضراتهم ومناظراتهم وشاعا عند وعاظ ذلك العصر وكتابه . ولكن الشيء الذي يلفت حقا هو أن الجاحظ وسعها إلى أبعد طاقة يمكن أن تحملها الأساليب وما من ريب في أن هذا التكرار يضاف على أسلوبه ضروبا من الجمال لأنه كان يستعين به على ما يريد من تقطيعات وتوقيعات صوتية فإذا الفكرة لا تؤدي في عبارة واحدة ، ولكن في عبارتين أو أكثر ، لا لسبب إلا لأن الجاحظ يريد لها أداء موسيقيا بجانب أدائها المعنوي .

خامسا: التلاوين العقلي :

وهي التحاسين العقلية التي تزين كتب الجاحظ ، ليست فنية في أصلها وإنما هي تحاسين منطقية وفلسفية استطاع الجاحظ أن يحولها في كتبه إلى تحاسين فنية خالصة أو تكاد إذ كان يدخلها في جميع أوعيته الصوتية وطبيعي أن تظهر هذه التحاسين عند الجاحظ لأنه كان متكلمًا وهو يرى أنه أخذ في كتبه من طرف الفلسفة إحساساً منه بما تدخله فلسفة العقل على تعبير صاحبه من تحاسين وتلاوين . ولعل ذلك ما جعله يعد المذهب الكلامي من ألوان البديع بما أدخله المتكلمون من طرق جدل وحوار وسفسطة وأدلة وبراهين ومقدمات وأقيسه . فعرف الجاحظ كيف يحاور ويداور وكيف يستعين بالمنطق الصحيح وكيف يستعين بالمنطق السقيم ليدعم رأيه فتكلم كثيرا عن محاسن الأشياء ثم عاد فتكلم عن مساوئها .

يعتمد على حجة الا'دلة وصدق المقدمات كما كان يعتمد على المغالطة أحيانا إلا أن إيمانه بضرورة تصحيح الا'صل الذي يبنى عليه القياس جعله امتاز من كتاب عصره باستخدام المنطق استخداما واسعا في تضاعيف أسلوبه فهو دائما يعرض أفكاره في صورة حجاج تقوم على براهين وأدلة ومقدمات وأقيسة ، ولا غرابة ، فقد كان يعتمد بذلك كلون عباسي بديع ينبغي أن يدخل في دوائر النثر وأن تحلى نماذج به حتى تنبسط الكتابة ويتسع التعبير فيها اتساعا يغذيه العقل الدقيق والمنطق الوثيق . فقد عني الجاحظ بما يتصل بالمنطق في كل قول وفعل حتى صار أهم كاتب في العصر العباسي الا'ول حكم المنطق في كل ما يصنع - فإن من يتصفح كتبه يحس جمال صوت وجمال منطق يعطي نغمات تميز الجاحظ في جميع فنه وصنعتة إذا ما يزال يتداخل التفكير العقلي وما يشفع به من قدرة على البرهان والاستدلال مع التفكير الفني وما يشفع به من قدرة على تقطيع الصوت وما ينطوي في هذا التقطيع من تكرار وترادف وبذلك يلتئم هذا الفن الجاحظي الذي يشيع فيه جمال العقل مع جمال الصوت .

سادسا: الموسوعية :

يعتبر الجاحظ بلا منازع عميد الموسوعيين خلال العصر الا'ول من تاريخنا الفكري . فقد نشأ الفكر العربي في العصور الوسطى موسوعيا وانتهى موسوعيا . نشأ على أيدي رجال فتح الإسلام لهم أبواب العلم والمعرفة ، وبسط الا'رض أمامهم ليضربوا في مناكبها ويتوسعوا في العلم بالا'رض وما عليها عن طريق المشاهدة

والتجربة وضع في أيديهم تراث الماضين ليتمشوا ويضيفوا خلاصته إلى ثروة الفكر العربي الإسلامي الناهض ثم ينشئوا من ذلك كله أدبا وعلما زاهرين يتناولان كل ما يرقى بالإنسان ويوسع أفقه ويهذب خلقه ويزيد حظه من الرقي والرخاء . هؤلاء الرجال هم الذين أرسوا أسس الفكر العربي بجهدهم الدؤوب المخلص خلال القرن الهجري الثاني - الثامن الميلادي - وهم الذين طوروا مفهوم الأدب من معنى التهذيب والسير على التقليد الخلقى الحميد إلى معنى المعرفة الإنسانية الواسعة « والالمام من كل شيء بطرف » كما يقول أولهم أبو عثمان الجاحظ .

كان يكتب بنفس المستوى من الإجادة والعمق والشمول وخفة الظل في العقائد وعلوم الإسلام والأدب والتاريخ الطبيعي والطب والاجناس والحيوان وأخلاق البشر وهو متدفق طويل النفس يصوغ ما يكتب في أسلوب سهل ممتع . فهو يخاطب عقل القارئ ويناقش معه الموضوعات في غير إثقال أو إدعاء أو تكلف . ومن الأسف أن الجاحظية في هذا المجال لم تجد من يرثها ويسير بها في الطريق الذي كان كفيلا بأن يخرج بالفكر العربي من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة .

فقد كان يقرأ دون نظام ويكتب دون نظام أيضا ، وهو ينتقل في الفقرة الواحدة من علوم القرآن إلى الشعر الجاهلي إلى النبات أو الحيوان إلى الفلك وقارؤه يتعب إذا طلب عنده موضوعا بعينه .

وقد كان للجاحظ رأي لم يلتفت إليه لا أصحاب الفن القولي شعراء أم أدباء

بعمامة ولا تنبه إليه مؤرخو الأدب حين كان الأدب ترفاً والتعبير حليّة وزينة ،
وحين كان النقد الأدبي أهواء أو شغلا بقضية لفظ دون معنى أو اهتماما بمعنى
دون لفظ — نادى الجاحظ بأن الأدب هو الإلمام من كل شيء بطرف كما يصور في
تعبيره عن فكرة عامة شاملة في المعرفة الإنسانية في النظرة العلمية إلى العالم ككل
ويوجه همه إلى المضمون والملاءمة بينه وبين الشكل في تنعيم جمالي ملتزم . وقيّمته في
عصرنا أنه من أصحاب الرسائل الأدبية أو بتعبير العصر أنه أديب ملتزم وهادف
لا يخرج أبدا عن هذا التخطيط الأدبي منذ نضج أدبيا إلى أن غاب عن الوجود .

سابعاً : الفكاهة والسخرية :

كان ظهور الفكاهة في الشعر العربي - بأشكالها المختلفة التي غالباً ما تمثلت في
سخرية أو هجاء - سابقاً على ظهورها في النثر ولكن الفكاهة حينما ظهرت في النثر
بدت أصلية عملاقة لا أول وهلة وليس أعمق دلالة على ذلك من ظهور شخصية فذة
كشخصية الجاحظ بأسلوبه الفكاهة الساخر الممتع .

وفكاهة الجاحظ عذبة راقية غير غثة ولا ساقطة تستقبلها النفس بالارتياح
ويتقبلها الخاطر بالبهجة والانشراح تتعلق بالحقيقي والاعتقائي والمجانين كما تتمثل في
نواصره وأفعاله وتبدو واضحة في آثاره وخاصة رسالة الترييح والتدوير . والسخرية
في أسلوب الجاحظ هي المظهر الذي يحتشد فيه النصيب اللاؤفر من الجمال الفني وهو
يلازمه الصيغ وأشكال متفاوت بين ظهور واختفاء أو بين تصريح وتلميح .

فالضحك والاضحاح في شخصية الجاحظ وفي أدبه شيء يرتبط بهما ارتباطا وثيقا ، وهو لديه مظهر من مظاهر الخفة والظرف . والغاية من ذلك هي الإيناس وادخال البهجة في القلوب وأشاعة روح المرح للتقوية والتنشيط ، وصاحبنا مولع بالضحك والاضحاح إلى حد بعيد . وهو بذلك يعد من طبقة أولئك الذين لا ينظرون إلى الحياة والناس إلا من الناحية المشرقة الحسنة . وقد تيسرت له أسباب الضحك والاضحاح في شكاه وطبعه جميعا أما شكاه ففيه من الشوهة ما يعينه على أن يضحك على نفسه ويضحك معه الناس أما طبعه فهازل مازح ظريف . وطالما استغل الجاحظ خلقة المشوهة فجعلها مصدرا لهزله السمع الخفيف من ذلك ما يخبرنا به يوم دعاه المتوكل العباسي لتأديب بعض ولده يقول « ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رأي استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفي » . وقال عن نفسه أنه اشترى جارية تركية جميلة رجاء أن يرزق منها ولدا يكون بحسنها وذكائه ، فولدت له ولدا جاء بقيقه وذكائها .

وليس أجمل من كلماته في الضحك التي يدلل بها على صحة مذهبه فيه وحتى لا يساء فهمه وليشرك الناس جميعا في نظراته المرحية إلى الحياة والأشياء فيقول في الحيوان « ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك لما قال الله جل ذكره « وأنه هو أضحك وأبكي ، وأنه هو أمات وأحيا » فوضع الضحك حذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ، وأنه لا يضيف إلى نفسه القبيح . وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كبيرا وهو شيء في أصل الطباع

وفي أساس التركيب . لأن الضحك أول خير يظهر من الصبى فبه تطيب نفسه
وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته . ولفضل خصال
الضحك عند العرب تسمى أولادهـا بالضحك وببسام - وقد ضحك النبي ﷺ
وفرح وضحك الصالحون وفرحوا . وإذا مدحوا قالوا : هو ضحك السن وبسام
العشيات ، وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز . وإذا ذموا قالوا : هو عبوس ،
وهو كالح ، وهو قطوب ... وللضحك موضع وله مقدار والمزح موضع وله مقدار
متى جاز هما أحد أو قصر عنها أحد صار الفضل خطأ والتقصير نقصا ، فالناس
لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ومتى أريد بالمزح النفع
وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المزح جدا ، والضحك وقارا .

أما سخرية الجاحظ فهي ذات لونين من حيث التصريح والتلميح فهو إما سخر
بالمحدثين والمفسرين والمؤولين والعلماء وأهل السلطان ، وقد دس هذه السخرية دساً
بارعا ، لا تكاد تراها إلا إذا كنت مطبوعا على مثلها ، جديرا بأدراك خفاياها .
فإن أنت أدركتها على هذه الصورة ألفتها قارصة لاذعة فيأضه بمعاني التهم
الخفي . وهو إذا سخر بالثقل والسخفاء والحمقى . لا يكتفي بالتعريض بل يميل
إلى إظهار الاستهزاء والتهم . على أنه يحصن نفسه بنطاق من الذوق السليم في
إخراج تهكمه الموجه ويزداد سخر الجاحظ إيلا ما إذا كان تشفيا من سخر أو
انتقاما لقيم مهدورة ويخف في غير هذا المقام .

والمثل الأعلى في السخرية اللاذعة بين كتبه هو رسالة الترييع والتدوير التي

ألفها - في أحمد بن عبد الوهاب ليستهزىء به ويسخر منه - على أساليب فنية يخرج في السخرية بالرجل من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل ، حتى يمزقه تمزيقا ، فيصغره في عين الناس أولا ، ثم يصغر هذا الرجل في نفسه فيتمنى لو أن الأرض خسفت به خوفا من أن تقع عليه عين ؛ وهل تبلغ السخرية من رجل ما يبلغه منه تصويره في صور شتى كل صورة منها معرض تعرض علينا فيه ناحية من نواحيه وفي كل معرض من هذه المعارض صورة هزلية ؛ صور من الهجاء والسخرية فبى وإن دمرت أحمد بن عبد الوهاب وحطمته فقد بلغت الذروة كنموذج رائع للفن الساخر الذي ربما لم يصله غيره من الساخرين شعرا أو نثرا في الشرق أو الغرب .

مظاهر السبق والعبقرية عند الجاحظ :

قد يكون ما هوأت تكرارا لما سبق لكنه اجمال لا بد منه لتعرف كم كان هذا الجاحظ أبو عثمان عملاقا حقا فريدا في عصره وعصور أخرى رائدا للأدب والفكر .

★ كان أول أديب كتب في كل ما يشغل العلماء والأدباء والعامة والخاصة فإيمانه بأن الأدب هو الإلمام من كل شيء بطرف جعل أدبه ملتزما هادفا وهو بذلك أعطى أدق الصور وأقربها لحقيقة مجتمع عصره وبذلك يعتبر أول كاتب طبع مؤلفاته بالطابع الموسوعي في تاريخ الفكر والأدب العربي فكان الرائد الأول الذي أرسى أسس هذا الفكر وطور مفهوم هذا الأدب ليصبح إطاره وهدفه المعرفة الإنسانية الواسعة وليس الترف والحلية والزينة .

★ هو أول من إنتهج في معرفته وتأليفه الدراية والتفكير المنطقي عند الرواية بدلا من سرد المسموع فلم تعرف في كتابات من سبقوه ممن أعمل الفكر وطبق الأساليب المنطقية العقلية ومارس التجريب العملي على قدر استطاعته مثلما فعل أبو عثمان فجاءت بذلك أفكاره صادقة صحيحة مقبولة .

★ كان أول من جمع الجد والهزل معا في كتاباته كما لو كان مفطورا على التهمك يجب النكتة للنكتة . يقولها حتى ولو انقلبت عليه . رأى أن في الجد إذا استمر ارهاقا للذهن وصرفا عن الموضوع مهما عاجلت الكتب في نظره من شئون جادة يجب ألا تخلو من الهزل والتسلية ترويحاً للقارىء .

★ وهو أول من اصطنع التأليف والكتابة صنعة ومهنة لم يصطنع سواها مع ما لاقاه في بداية طريقه من تجاهل لقلمه وكتاباته حتى عرف أسمه وذاعت كتيبه فقد فضل أن يعيش حرا بقلمه وأن يسن هذه السنة الطيبة للكتاب من بعده .

★ هو أكثر الأدباء عطاء غزيرا حتى أن الرواة وكتب التراجم لم تذكر أحدا أكثر منه كتباً ومع الاجادة والبراعة إستبد به شغف التحصيل وتسلطت عليه رغبة في المعرفة فكان عطاؤه مئات من الكتب الخالدة في كل فن وميدان .

★ أول من كتب نشر في موضوعات كانت الكتابة فيها مقصورة على الشعر أو معروفة به فهجا بالنشر في رسالته الترييع والتدوير محمد بن عبد الوهاب فصار بها رائد الهجاء في زمانه وفي كل زمان وكذلك رثا بالنشر فكتب أبداع المراثي .

المراجع

- ١ — أبو عثمان الجاحظ ، محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة ، دار الطباعة المحمدية ، (د . ت) .
- ٢ — الأُدب في موكب الحضارة ، مصطفى الشكعة ، القاهرة ، مكتبة الانجلو ، ١٩٦٨ م .
- ٣ — أعلام الأُدب العباسي ، محمد رضوان الداية ، دمشق ، مكتبة الفارابي ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م .
- ٤ — ألوان من التذوق الأُدبي ، مصطفى الصاوي الجويني ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ١٩٧٢ م .
- ٥ — أمراء البيان ، محمد كرد علي ، بيروت ، دار الامة ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .
- ٦ — البخلاء ، أبو عثمان الجاحظ ، بيروت ، دار صادر (د . ت) .
- ٧ — البيان والتبيين ، أبو عثمان الجاحظ ، تحقيق حسن السندوي ، بيروت ، دار الفكر (د . ت) .
- ٨ — التاج في اخلاق الملوك ، أبو عثمان الجاحظ ، تحقيق فوزي عطوى ، بيروت ، الشركة اللبنانية للكتاب ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

- ٩ — تاريخ آدب اللغة العربية ، جورجى زيدان ، بيروت ، دار مكتبة الحياة، (د.ت) .
- ١٠ — تاريخ الآدب العربى ، عمر فروخ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٥م .
- ١١ — الجاحظ أكبر ساخر فى الآدب العربى ، جورج جرداق ، مقال فى مجلة العربى ، العدد ١٢ ، نوفمبر ١٩٥٩م .
- ١٢ — الجاحظ حياته وآثاره ، طه الحجورى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٣٨٩هـ ، ١٩٦٩م .
- ١٣ — الجاحظ نصير المرأة ، ظافر القاسمى ، مقال بمجلة العربى العدد ١٣٥ فبراير ١٩٧٠م .
- ١٤ — الجاحظ ولغة الجماهير ، فاروق شوشه ، مقال بمجلة العربى العدد ١٥٦ نوفمبر ١٩٧١م .
- ١٥ — الجاحظ ومجتمع عصره ، جميل جبر ، بيروت ، المكتبة الكاثوليكية ، ١٣٨٧هـ ، ١٩٥٨م .
- ١٦ — جواهر الآدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب ، أحمد الهاشمى ، بيروت ، مؤسسة المعارف ، ١٣١٥هـ .
- ١٧ — الحيوان ، أبو عثمان الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، مصطفى الحلبى ، ١٣٨٩هـ ، ١٩٦٩م .

- ١٨ — رسالة الترييع والتدوير ، أبو عثمان الجاحظ ، تحقيق فوزي عطوى ، بيروت ، الشركة اللبنانية للكتاب (د. ت) .
- ١٩ — فصول من الفكر المعاصر . ماجد الحفاجي ، القاهرة ، دار الطباعة المحمدية (د. ت) .
- ٢٠ — الفن ومذاهبه في النشر العربي ، شوقي ضيف ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٤م .
- ٢١ — معجم الاءدباء : ياقوت الحموي ، ج ١٦ ، بيروت ، دار المستشرق (د. ت) .
- ٢٢ — مروج الذهب ومعادن الجوهر . المسعودي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، كتاب التحرير ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .
- ٢٣ — ملامح النشر العباسي ، عمر الدقاق ، حلب ، دار القلم العربي ، ١٩٧٤م .
- ٢٤ — الموسوعات طابع الشفافة العربية وحافزها الدافع ، حسين مؤنس ، مقال بمجلة العربي عدد ٧٣ لشهر ديسمبر سنة ١٩٦٤م .
- ٢٥ — وفيات الاءعيان ، ابن خلكان ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٠م .

